بطريق العلم فقد حصلته ، ولم يبقَ الا ما لا سبيل اليه بالسماع والتعلم ، بل بالذوق والسلوك . وكان (قد) حصل معي — من العلوم التي مارستها والمسالك التي سلكتها ، في التفتيش عن صنفي العلوم الشرعية والعقلية — ايمانٌ يقينيٌّ بالله تعالى ، وبالنبُوّة ، وباليوم الآخر .

فهذه الاصول الثلاثة من الايمان كانت قد رسخت في نفسي ، لا بدليل معين محرر ، بل باسبابٍ وقرائن وتجارب لا تدخل تحت الحصر تفاصيلُها .

وكان قد ظهرعندي انه لا مطمع (لي) في سعادة الآخرة إلا بالتقوى ، وكف النفس عن الهوى ، وأن رأس ذلك كله ، قطعُ علاقة القلب عن الدنيا بالتجافي عن دار الغرور ، والإنابة الى دار الخلود ، والاقبال بكُنه الهمة على الله تعالى . وان ذلك لا يتم الا بالإعراض عن الجاه والمال ، والهرب من الشواغل والعلائق .

ثم لاحظت احوالي ؛ فاذا أنا منغمس في العلائق ، وقد أحدقت بي من الجوانب ؛ ولاحظت أعمالي — وأحسنها التدريس والتعليم — فاذا انا فيها مقبل على علوم غير مهمة ولا نافعة في طريق الآخرة .

ثم تفكرت في نيتي في التدريس فاذا هي غير خالصة لوجه الله تعالى ، بل باعثها ومحركها طلب الجاه وانتشار الصيت ؛ فتيقنت أني على شفا جُرُف هار ، وأني قد اشفيت على النار ، إن لم اشتغل بتلافي الاحوال .

فلم ازل اتفكر فيه مدة ، وانا بعدُ على مقام الاختيار ، أصمم العزم على الخروج من بغداد ومفارقة تلك الاحوال يوماً ، واحل العزم يوماً ، وأقدم فيه رجلاً وأؤخر عنه أخرى . لا تصدق لي رغبة في طلب الآخرة بكرة ، إلا ويحمل عليها جند الشهوة حملة فيفترها عشية . فصارت شهوات الدنيا تجاذبني بسلاسلها الى المقام ، ومنادي الايمان ينادي : الرحيل ! الرحيل ! فلم يبق من العمر إلا قليل ، وبين يديك السفر الطويل ، وجميع ما أنت فيه من العلم والعمل رياء

وتخييل ! فان لم تستعد الآن للآخرة فمتى تستعد ؟ وإن لم تقطع الآ ن [هذه العلائق] فمتى تقطع ؟ فعند ذلك تنبعث الداعية ، وينجزم العزم على الهرب والفرار .

ثم يعود الشيطان ويقول : « هذه حال عارضة ، إياك أن تطاوعها ، فانها سريعة الزوال ؛ فان أذعنت لها وتركت هذا الجاه العريض ، والشأن المنظوم الخالي عن التكدير والتنغيص ، والأمر المسلم الصافي عن منازعة الخصوم ، ربما التفتت اليه نفسك ، ولا يتيسر لك المعاودة . »

فلم ازل أتردد بين تجاذب شهوات الدنيا ، ودواعي الآخرة ، قريباً من ستة أشهر أولها رجب سنة ثمان وثمانين وأربع مائة . وفي هذا الشهر جاوز الامر حد الاختيار الى الاضطرار ، اذ أقفل الله على لساني حتى اعتقل عن التدريس ، فكنت أجاهد نفسي أن أدرس يوماً واحداً تطيباً لقلوب المختلفة [الي] ، فكان لا ينطق لساني بكلمة [واحدة] ولا أستطيعها البتة ، حتى أورثت هذه العقلة في اللسان حزناً في القلب ، بطلت معه قوة الهضم ومراءة الطعام والشراب : فكان لا ينساغ لي ثريد ، ولا تنهضم (لي) لقمة ؛ وتعدى الى ضعف القوى ، حتى قطع الاطباء طمعهم من العلاج وقالوا : « هذا أمر نزل بالقلب ، ومنه سرى الى المزاج ، فلا سبيل اليه بالعلاج ، الا بأن يتروح السر عن الهم الملم » .

ثم لما أحسست بعجزي ، وسقط بالكلية اختياري ، التجأت الى الله تعالى التجاء المضطر الذي لا حيلة له ، فأجابني الذي « يجيب المضطر اذا دعاه » ، وسهل على قلبي الإعراض عن الجاه والمال (والاهل والولد والاصحاب) ، وأظهرت عزم الخروج الى مكة وأنا أدبّر في نفسي سفر الشام حذراً أن يطلع الخليفة وجملة الاصحاب على عزمي على المقام في الشام ؛ فتلطفت بلطائف الحيل في الخروج من بغداد على عزم أن لا أعاودها أبداً . واستهدفت لأئمة أهل العراق كافة ، اذ لم يكن فيهم من يجوز أن يكون للاعراض عما كنت فيه سبب

دينيّ، اذ ظنوا أن ذلك هو المنصب الأعلى في الدين ، وكان ذلك مبلغهم من العلم .

ثم ارتبك الناس في الاستنباطات ، وظن من بعُد عن العراق ، أن ذلك كان لاستشعار من جهة الولاة ؛ (وأما من قرب من الولاة) فكان يشاهد إلحاحهم في التعلق بي والانكباب عليّ ، واعراضي عنهم ، وعن الالتفات الى قولهم ، فيقولون : « هذا أمر سماوي ، وليس له سبب الا عين أصابت أهل الاسلام وزمرة أهل العلم » .

ففارقت بغداد ، وفرقت ما كان معي من المال ، ولم أدخر الا قدر الكفاف ، وقوت الاطفال ، ترخصاً بأن مال العراق مرصد للمصالح ، لكونه وقفاً على المسلمين . فلم ار في العالم مالاً يأخذه العالم لعياله أصلح منه .

ثم دخلت الشام ، وأقمت به قريباً من سنتين لا شغل لي الا العزلة والخلوة ؛ والرياضة والمجاهدة ، اشتغالاً بتزكية النفس ، وتهذيب الاخلاق ، وتصفية القلب لذكر الله (تعالى) ، كما كنت حصلته من كتب الصوفية . فكنت اعتكف مدة في مسجد دمشق ، أصعد منارة المسجد طول النهار ، وأغلق بابها على نفسي .

ثم رحلت منها الى بيت المقدس ، أدخل كل يوم الصخرة ، وأغلق بابها على نفسي .

ثم تحركت فيّ داعية فريضة الحج ، والاستمداد من بركات مكة والمدينة . وزيارة رسول الله ﷺ بعد الفراغ من زيارة الخليل صلوات الله وسلامه عليه ؛ فسرت الى الحجاز .

ثم جذبتني الهمم ، ودعوات الأطفال الى الوطن ، فعاودته بعد أن كنت أبعد الخلق عن الرجوع اليه . فآثرت العزلة [به] أيضاً حرصاً على الخلوة ، وتصفية القلب للذكر .

وكانت حوادث الزمان ، ومهمات العيال ، وضرورات المعاش ، تغير فيَّ وجه المراد ، وتشوش صفوة الخلوة . وكان لا يصفو [لي] الحال الا في أوقات متفرقة . لكني مع ذلك لا أقطع طمعي منها ، فتدفعني عنها العوائق ، وأعود اليها.

ودمت على ذلك مقدار عشر سنين ؛ وانكشفت لي في أثناء هذه الخلوات أمور لا يمكن احصاؤها واستقصاؤها ، والقدر الذي أذكره لينتفع به : أني علمت يقيناً أن **الصوفية** هم السالكون لطريق الله (تعالى) خاصة ، وأن سيرتهم أحسن السير ، وطريقهم أصوب الطرق ، وأخلاقهم أزكى الاخلاق . بل لو جُمع عقل العقلاء ، وحكمة الحكماء ، وعلم الواقفين على أسرار الشرع من العلماء ، ليغيروا شيئاً من سيرهم وأخلاقهم ، ويبدلوه بما هو خير منه ، لم يجدوا اليه سبيلاً . فان جميع حركاتهم وسكناتهم ، في ظاهرهم وباطنهم ، مقتبسة من (نور) مشكاة النبوة ؛ وليس وراء نور النبوة على وجه الارض نور يستضاء به .

وبالجملة ، فماذا يقول القائلون في طريقة ، طهارتها — وهي أول شروطها — تطهير القلب بالكلية عما سوى الله (تعالى) ، ومفتاحها الجاري منها مجرى التحريم من الصلاة ، استغراق القلب بالكلية بذكر الله ، وآخرها الفناء بالكلية في الله ؟ وهذا آخرها بالاضافة الى ما يكاد يدخل تحت الاختيار والكسب من أوائلها . وهي على التحقيق أول الطريقة ، وما قبل ذلك كالدهليز للسالك اليه .

ومن أول الطريقة تبتدئ المكاشفات (والمشاهدات) ، حتى انهم في يقظتهم يشاهدون الملائكة ، وأرواح الأنبياء ويسمعون منهم أصواتاً ويقتبسون منهم فوائد . ثم يترقى الحال من مشاهدة الصور والأمثال ، الى درجات يضيق عنها نطاق النطق ، فلا يحاول معبر أن يعبر عنها الا اشتمل لفظه على خطإ صريح لا يمكنه الاحتراز عنه .

وعلى الجملة . ينتهي الامر الى قرب يكاد يتخيل منه طائفة الحلول ، وطائفة الاتحاد ، وطائفة الوصول ، وكل ذلك خطأ . وقد بينا وجه الخطأ فيه

في كتاب « المقصد الاسنى » ؛ بل الذي لابسته تلك الحالة لا ينبغي أن يزيد على أن يقول :

وكان ما كان مما لست أذكره فظن خيراً ولا تسأل عن الخبر !

وبالجملة ، فمن لم يرزق منه شيئاً بالذوق ، فليس يدرك من حقيقة النبوة الا الاسم ، وكرامات الاولياء ، [هي] على التحقيق ، بدايات الانبياء ، وكان ذلك أول حال رسول الله ﷺ ، حين أقبل الى جبل « حراء » ، حيث كان يخلو فيه بربه ويتعبد ، حتى قالت العرب : « ان محمداً عشق ربه ! » .

وهذه حالة ، يتحققها بالذوق من يسلك سبيلها . فمن لم يرزق الذوق ، فيتيقنها بالتجربة والتسامع ، ان أكثر معهم الصحبة ، حتى يفهم ذلك بقرائن الاحوال يقيناً . ومن جالسهم ، استفاد منهم هذا الإيمان . فهم القوم لا يشقى جليسهم . ومن لم يرزق صحبتهم ، فليعلم امكان ذلك يقيناً بشواهد البرهان ، على ما ذكرناه في كتاب « عجائب القلب » من كتب « احياء علوم الدين » .

والتحقيق بالبرهان **علم** ، وملابسة عين تلك الحالة **ذوق**، والقبول من التسامع والتجربة بحسن الظن **ايمان** .

فهذه ثلاث درجات : « يرفع الله الذين آمنوا منكم والذين أوتوا العلم درجات » .

ووراء هؤلاء قوم جهال ، هم المنكرون لاصل ذلك ، المتعجبون من هذا الكلام ، يستمعون ويسخرون ، ويقولون : العجب ! انهم كيف يهذون ! وفيهم قال الله تعالى : « ومنهم من يستمع اليك ، حتى اذا خرجوا من عندك قالوا للذين اوتوا العلم ماذا قال آنفاً ، اولئك الذين طبع الله على قلوبهم واتبعوا أهواءهم » (فأصمهم وأعمى أبصارهم) .

ومما بان لي بالضرورة من ممارسة طريقتهم ، « **حقيقة النبوة وخاصيتها** » . ولا بد من التنبيه على اصلها لشدة مسيس الحاجة اليها .

حقيقة النبوة
واضطرار كافة الخلق اليها

اعلم : أن جوهر الإنسان في أصل الفطرة ، خلق خالياً ساذجاً لا خبر معه من عوالم الله (تعالى) ؛ والعوالم كثيرة لا يحصيها الا الله تعالى ، كما قال : « وما يعلم جنود ربك الا هو » وانما خبره من العوالم بواسطة الإدراك ، وكل ادراك من الإدراكات خلق ليطلع الإنسان به على عالم من الموجودات ، ونعني بالعوالم ، أجناس الموجودات .

فأول ما يخلق في الانسان حاسة **اللمس** ، فيدرك بها أجناساً من الموجودات : كالحرارة ، والبرودة ، والرطوبة واليبوسة ، واللين والخشونة ، وغيرها . واللمس قاصر عن الالوان والاصوات قطعاً ، بل هي كالمعدوم في حق اللمس .

ثم تخلق له [حاسة] **البصر** ، فيدرك بها الالوان والاشكال ، وهو أوسع عوالم المحسوسات .

ثم ينفخ فيه **السمع** ، فيسمع الاصوات والنغمات .

ثم يخلق له **الذوق** . وكذلك الى أن يجاوز عالم المحسوسات ، فيخلق فيه **التمييز** ، وهو قريب من سبع سنين ، وهو طور آخر من أطوار وجوده : فيدرك فيه اموراً زائدة على (عالم) المحسوسات ، لا يوجد منها شيء في عالم الحس .

ثم يترقى الى طور آخر ، فيخلق له **العقل** ، فيدرك الواجبات والجائزات والمستحيلات ، واموراً لا توجد في الاطوار التي قبله .

ووراء العقل طور آخر تنفتح فيه عين أخرى يبصر بها الغيب وما سيكون في

المستقبل ، واموراً أخر ، العقل معزول عنها كعزل قوة التمييز عن ادراك المعقولات وكعزل قوة الحس عن مدركات التمييز . وكما أن المميز لو عرضت عليه مدركات العقل لأباها واستبعدها ، فكذلك بعض العقلاء أبوا مدركات النبوة واستبعدوها ، وذلك عين الجهل : إذ لا مستند لهم الا انه طور لم يبلغه ولم يوجد في حقه ، فيظن انه غير موجود في نفسه . والأكمه ، لو لم يعلم بالتواتر والتسامع الالوان والاشكال وحكي له ذلك ابتداءً ، لم يفهمها ولم يقرّ بها . وقد قرب الله تعالى على خلقه بأن اعطاهم نموذجاً من خاصية النبوة ، وهو النوم : إذ النائم يدرك ما سيكون من الغيب ، اما صريحاً واما في كسوة مثال يكشف عنه التعبير . وهذا لو لم يجربه الإنسان من نفسه — وقيل له : «ان من الناس من يسقط مغشياً عليه كالميت ، ويزول (عنه) إحساسه وسمعه وبصره فيدرك الغيب . » — لأنكره ، واقام البرهان على استحالته ، وقال : « القوى الحساسة اسباب الإدراك ، فمن لا يدرك الأشياء مع وجودها وحضورها ، فبأن لا يدرك مع ركودها اولى واحق . » وهذا نوع قياس يكذبه الوجود والمشاهدة . فكما ان العقل طور من أطوار الآدمي ، يحصل فيه عين يبصر بها انواعاً من المعقولات ، والحواس معزولة عنها ، فالنبوة ايضاً عبارة عن طور يحصل فيه عين لها نور يظهر في نورها الغيب ، وأمور لا يدركها العقل .

والشك في النبوة ، اما ان يقع : في امكانها ، او في وجودها ووقوعها ، او في حصولها لشخص معين .

ودليل امكانها وجودها . ودليل وجودها وجود معارف في العالم لا يتصور ان تنال بالعقل ، كعلم الطب والنجوم ؛ فإن من بحث عنها علم بالضرورة انها لا تدرك الا بإلهام الهي وتوفيق من جهة الله (تعالى) ، ولا سبيل اليها بالتجربة . فمن الاحكام النجومية ما لا يقع الا في كل الف سنة مرة ، فكيف ينال ذلك بالتجربة ؟ وكذلك خواص الادوية . فتبين بهذا البرهان أن في الإمكان وجود طريق لادراك هذه الامور التي لا يدركها العقل — وهو المراد بالنبوة — لا أن النبوة عبارة عنها فقط ، بل ادراك هذا الجنس الخارج عن مدركات العقل احدى

خواص النبوة ، ولها خواص كثيرة سواها . وما ذكرنا ، فقطرة من بحرها ؛ انما ذكرناها لان معك أنموذجاً منها ، وهو مدركاتك في النوم ؛ ومعك علوم من جنسها في الطب والنجوم ، وهي معجزات الانبياء (عليهم الصلاة والسلام) ، ولا سبيل اليها للعقلاء ببضاعة العقل أصلاً .

واما ما عدا هذا من خواص النبوة ، فإنما يدرك بالذوق ، من سلوك طريق **التصوف** ؛ لان هذا انما فهمته بأنموذج رزقته وهو النوم ، ولولاه لما صدقت به . فإن كان للنبي خاصة ليس لك منها أنموذج ، ولا تفهمها اصلاً ، فكيف تصدق بها ؟ وانما التصديق بعد الفهم : وذلك الانموذج يحصل في اوائل طريق التصوف فيحصل به نوع من الذوق بالقدر الحاصل ونوع من التصديق بما لم يحصل بالقياس (اليه) . فهذه الخاصية الواحدة تكفيك للإيمان بأصل النبوة .

فإن وقع لك الشك في شخص معين ، أنه نبي أم لا ، فلا يحصل اليقين الا بمعرفة احواله ، اما بالمشاهدة ، او بالتواتر والتسامع ؛ فإنك اذا عرفت الطب والفقه ، يمكنك ان تعرف الفقهاء والاطباء بمشاهدة أحوالهم ، وسماع اقوالهم ، وان لم تشاهدهم ؛ ولا تعجز ايضاً عن معرفة كون الشافعي (رحمه الله) فقيهاً ، وكون جالينوس طبيباً ، معرفة بالحقيقة لا بالتقليد عن الغير ، [بل] بأن تتعلم شيئاً من الفقه والطب وتطالع كتبهما وتصانيفهما ، فيحصل لك علم ضروري بحالهما . فكذلك اذا فهمت معنى النبوة فأكثرت النظر في القرآن والاخبار ، يحصل لك العلم الضروري بكونه ﷺ على أعلى درجات النبوة ، واعضد ذلك بتجربة ما قاله في العبادات وتأثيرها في تصفية القلوب ، وكيف صدق ﷺ في قوله : «من عمل بما علم ورثه الله علم ما لم يعلم» وكيف صدق في قوله : « من أعان ظالماً سلطه الله عليه » وكيف صدق في قوله : « من اصبح وهمومه هم واحد كفاه الله (تعالى) هموم الدنيا والآخرة » ، فاذا جربت ذلك في الف والفين وآلاف ، حصل لك علم ضروري لا تمارى فيه .

فمن هذا الطريق أطلب اليقين بالنبوة، لا من قلب العصا ثعباناً، وشق القمر ، فان ذلك اذا نظرت اليه وحده ، ولم تنضم اليه القرائن الكثيرة الخارجة عن الحصر، ربما ظننت انه سحر وتخييل ، وانه من الله تعالى إضلال فانه « يضل من يشاء ويهدي من يشاء . »

وترد عليك اسئلة المعجزات ، فاذا كان مستند ايمانك الى كلام منظوم في وجه دلالة المعجزة ، فينجزم ايمانك بكلام مرتب في وجه الاشكال والشبهة عليها ، فليكن مثل هذه الخوارق إحدى الدلائل والقرائن في جملة نظرك ، حتى يحصل لك علم ضروري لا يمكنك ذكر مستنده على التعيين كالذي يخبره جماعة بخبر متواتر لا يمكنه ان يذكر أن اليقين مستفاد من قول واحد معين ، بل من حيث لا يدري ، ولا يخرج عن جملة ذلك ولا بتعيين الآحاد . **فهذا هو الايمان القوي العلمي** .

وأما **الذوق** فهو كالمشاهدة والاخذ باليد ، ولا يوجد الا في طريق الصوفية.

فهذا القدر من حقيقة النبوة، كاف في الغرض الذي اقصده الآن، وسأذكر وجه الحاجة إليه .

سبب نشر العلم بعد الاعراض عنه

ثم إني ، لما واظبت على العزلة والخلوة قريباً من عشر سنين ، بان لي في أثناء ذلك على الضرورة من أسباب لا احصيها ، مرة بالذوق ، ومرة بالعلم البرهاني ، ومرة بالقبول الايماني : أن الانسان خلق من بدن وقلب — واعني بالقلب حقيقة روحه التي هي محل معرفة الله ، دون اللحم والدم الذي يشارك فيه الميت والبهيمة — ، وأن البدن له صحة بها سعادته ومرض فيه هلاكه ؛ وان القلب كذلك له صحة وسلامة، ولا ينجو « إلا من أتى الله بقلب سليم » ؛ وله مرض فيه هلاكه الابدي الاخروي ، كما قال تعالى : « في قلوبهم مرض » ؛ وان الجهل بالله سم مهلك ؛ وان معصية الله ، بمتابعة الهوى ، داؤه الممرض، وان معرفة الله تعالى ترياقه المحيي ، وطاعته بمخالفة الهوى ، دواؤه الشافي ؛ وانه لا سبيل إلى معالجته بازالة مرضه وكسب صحته ، الا بأدوية ؛ كما لا سبيل إلى معالجة البدن الا بذلك . وكما أن أدوية البدن تؤثر في كسب الصحة بخاصية فيها ، لا يدركها العقلاء ببضاعة العقل ، بل يجب فيها تقليد الاطباء الذين اخذوها من الانبياء ، الذين اطلعوا بخاصية النبوة على خواص الاشياء ، فكذلك بان لي ، على الضرورة ، بان ادوية العبادات بحدودها ومقاديرها المحدودة المقدرة من جهة الانبياء ، لا يدرك وجه تأثيرها ببضاعة عقل العقلاء ، بل يجب فيها تقليد الانبياء الذين ادركوا تلك الخواص بنور النبوة ، لا ببضاعة العقل . وكما ان الادوية تركب من (اخلاط مختلفة) النوع والمقدار وبعضها ضعف البعض في الوزن والمقدار ، فلا يخلو اختلاف مقاديرها عن سر هو من قبيل الخواص ، فكذلك العبادات التي هي